

خطبة الدكتور محمد توفيق رمضان البوطي

لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

ويقول سبحانه: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)

ويقول سبحانه: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِحِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُبُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءَ الْكَافِرِينَ)

وقال سبحانه: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَانْحَشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

وقال سبحانه: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

ويقول سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ)

وقال جلّ شأنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ)

أيها المسلمون:

هذا الإعصار الذي ثار من حولنا يقتضيني أن أقف معه ثلاث مواقف:

الوقفة الأولى: أن عدونا الأول الذي يهدد أمننا ويهدد استقرار بلادنا، ويهدد مصير أمتنا إنما هو المعصية، وليس أمريكا ولا فرنسا ولا ذلك العدو الجاثم في أرض فلسطين، إنما هو معاصينا، فإذا ما أردنا أن نتجاوز الخطر فما علينا إلا أن نتوب إلى ربنا؛ لأن أي مصيبة تصيب هذه الأمة إنما تنجم عن معاصيها، وإنما هي ثمرة لانحرافها عن نهج ربها، ألم يقل الله سبحانه: **(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)** لذلك إذا نظرنا إلى حال الأمة أو إلى حال الفرد وما قد أصابه، فلينظر إلى واقع حياته وسلوكه وتصرفاته، وإلى صلته بربه، فليتحسس موطأ قدمه، ولينظر إلى موضع حاله مع ربه سبحانه وتعالى، فإن حالة الإنسان في كثير من الأحيان إنما تكون ناجمة عن سوء تصرفه وانحرافه عن نهج ربه، على أن المعصية قد ينعكس شؤمها على الأمة كلها بسبب ارتكاب قلة لها، فكيف إذا كانت الكثرة الكاثرة منها منحرفة عن نهج الله عز وجل!! ليس لنا عندئذٍ إلا أن نصدق في الالتجاء إلى الله والاعتصام بحبله، واللواذ ببابه، وأن نقول يا رب برئنا من المعاصي، وقد بذلنا مستطاعنا في النصح، إن علينا أن نصحح سلوكنا وأن نبدأ بأنفسنا، وليس ثمة منفعة أو فائدة من أن نلقي النصح إلى الآخرين ولا نلقي النصح على أنفسنا نحن **(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)**، **(لَمْ تَقُولُوا مَا لَّا تَفْعَلُونَ)** المسألة تقتضي منا تصحيح المسار، تصحيح السلوك، تصحيح الصلة بالله جلَّ شأنه. هذه هي المسألة الأولى التي أريد أن أقف عندها.

المسلمون في غزوة أحد ومعهم رسول الله ﷺ أربعون منهم فقط هم الذين عصوا فيما أشار إليه بيان ربنا **(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)** بدأت المعركة بنصر من الله للمسلمين وانكشف الكفار، ثم سال لعاب أربعين من المسلمين على غنائم تافهة، وسولت لهم أنفسهم أن يعصوا رسول الله؛ إذ قال لهم الزموا أماكنكم على جبل الرماة فعصوا رسول الله ﷺ لما رأوا الغنائم قال تعالى **(حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ)** فانظروا إلى واقعنا اليوم ونفشي المعاصي والانحرافات. وهذا لا يقتضي منا اليأس، ولكن يقتضي منا تجديد العهد مع الله، تجديد الصلة به، والعودة الصادقة إلى بابه والالتجاء إلى أعتابه بالتوبة النصوح، وابدأ بنفسك ثم انصح الآخرين.

وهذه مسألة أخرى: الغرور.. الغرور بانتصار فلان لنا، أو بغيره، نحن يجب أن نشكر الدول الصديقة لموقفها منا هذا أمر لا يختلف عليه اثنان، إلا أننا يجب أن نعلم أن النصر إنما هو من عند الله، وينبغي أن نعلم أن القوة الحقيقية هي بيد الله وليست بيد شرق أو غرب، لذا لن نخاف من قوة طاغية في الأرض، ولن نطمع بقوة قوية في هذه الأرض؛ إنما نخاف من الله، ونتجئ إلى الله. فما النصر إلا من عند الله وخسئت قوة طاغية

في الأرض أن تحدث ما لم يقدره الله لنا (واعلم أن الدنيا قد اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) وإنما يكتب الله علينا المصيبة بمعصية نرتكبها.

الأمر الآخر.. كونوا على ثقة من أنه لن يخذلنا الله عز وجل ما دمنا على بابه، ولن ننهزم ما كنا رافعين الأكف إليه متضرعين (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) بهذا أمرنا الله عز وجل، أمرنا بالثبات فلا ننهزم، أمرنا بذكر الله والاتجاء إليه، (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) أخاف من تلك الدول التي أمرها بيد ربنا، وليس أمرنا بيدها. أما نحن فعلى أن نقول: وأفوض أمري إلى الله، علينا أن نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، قال: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وقال: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ) الله سبحانه سخر ملائكته لكي يؤيدنا بهم؛ لكن النصر ليس بهم ولا بروسيا ولا بإيران - مع الشكر لكل دولة صديقة تقف بجانب الحق - النصر بيد الله، فالله تعالى نفى أن يكون النصر بيد الملائكة الذين أمد بهم المسلمين في بدر، قال الله تبارك وتعالى لنبيه: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

روي عن الإمام جعفر الصادق أنه قال: عجبت لمن خاف ولم يفرغ إلى قوله تعالى: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فقد قال ربنا بعدها فَاثْبُتُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفُضِّلَ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، وعجبت لمن مكر به - لمن تأمرت دول البغي والعدوان عليه - (وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) فقد سمعت الله تبارك وتعالى بعقبها يقول: (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا)، عجبت لمن اغتم - ضاق صدره - كيف لا يفرغ إلى قوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) لأني سمعت الله يقول بعقبها: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) هذا الكلام ليس خاصاً بسيدنا أيوب، فكل من التجأ إلى الله عز وجل بقوله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كان الله له مؤيداً، وكان الله تعالى معه، قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

وأخيراً: الذين اتخذوا الكفرة أولياء لهم فاستنصروا بهم على إخوانهم وارتموا على أقدام أولئك الأعداء لكي يؤيدوهم على أبناء أمتهم، ألم يجربوهم؟! جاؤوا إلى العراق ليخلصوا العراق من طاغيته، ففعلوا بالعراق الأفاعيل، وهل قامت دولة البغي والعدوان تلك في حياتها المعاصرة إلا على شهادة تزكية من تلك الدولة المسخ إسرائيل؟! وما من زعيم تبوأ مقعده في أرضه إلا بعد أن نال شهادة حسن السلوك من دولة العصابات

الطاغية على أرضنا، أولئك سوف ينصرونكم!!؟!! بنس ما تستنصرون. (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أيها المسلمون:

كونوا على طمأنينة وثقة بالله جل شأنه، فالله تعالى يقول لنا: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِكِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا) إنهم يكيدون كيدا، ورب السموات والأرض يقول: وَأَكِيدُ كَيْدًا، فليقابل كيدهم كيد الله جلَّ شأنه، خسئوا، فالله هو الغالب على أمره.

كونوا على ثقة بأن كيدهم سينحسر، ستنتصر كلمة الحق وتزهق كلمة الباطل، (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)، والعاقبة للمتقين

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين.

قبل أن أبدأ بالدعاء أذكركم بقوله تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

ويقول سبحانه: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أذكر نفسي وإياكم بالتوبة الصادقة والعودة إلى الله، وإبراء الذمم، والصدق في التعامل مع بعضنا، والتراحم والتعاطف وإعانة المساكين، وأذكر نفسي وإياكم بصدق التوبة من الحقوق التي هي في ذمتنا تجاه أي من الناس؛ لأننا لا يمكن أن تصح التوبة منا مادامت ذمتنا مشغولة بظلامة لأخ من إخواننا أو أقربائنا، ثم بعد ذلك أن نكثر من الالتجاء إلى الله عز وجل بحسبنا الله ونعم الوكيل، لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، وأستحسن أن نلبي الدعوة إلى صيام يوم الاثنين استدفاعاً للبلاء، والتجاءً إلى الله؛ لأن دعاء الصائم مستجاب، أسأل الله تعالى أن يستجيب دعاءنا وأن يفرج عنا...